

دراسة في علم السيكوباتولوجي (الكتاب الثاني)



الحلقة (17) من وحي الحالة الثالثة
الحق في الرجوع (العود)
الحنين إلى "ركنك الخاص" (2 من 2)



خبرات شخصية: الركن القصي والجذب اللحوج

قبل المقدمة:

ذكرت أمس كيف أننى اكتشفت حنيني الشخصي إلى ركني الخاص، كما سجلته بالذات في الجزء الثاني من الترحلات "الموت والحنين"، وأعلنت تساؤلي هل يجوز أن أقتطف نفسي وكأنه النقد؟

يجوز أو لا يجوز، هذا ما كان، وسوف أتعمد - لأتجنب هذا الموقف النقدي- ألا أضيف للمقتطفات إلا عنوان فرعي أو تعليق محدود.

الركن: داخلي أم خارجي؟

لا ينفصل حنيني إلى ركني الخاص الداخلي عن انجذابي إلى ركني الخاص خارجي في الطبيعة بوجه خاص.

تنتهي هذه المقتطفات في نشرة اليوم بهذه العبارة:

".....ليكن ريف فرنسا في الشمال هو رحلتى إلى داخلي
أكمل بها شرنقتي لعلى أخرجُ فراشة حقيقية قادرة على
البيض من جديد."

- الترحال الثاني: "الموت والحزن"

الفصل السادس ص 288

لاحظ: الشرنقة والفراشة

وقد بدأت هذه الخبرة تحديدا حين رأيت من أعلى الجبل في طريقى من أثينا إلى تركيا عبر سالونيكى كوخا قد تجسد لى ركنى الخاص، فجذبنى إليه ليثبت لى حكاية الجاذبية الأرضية.

المقتطفات

(1) "....اكتشفت أننا فى أعلى جبل ما. متى صعنا إلى كل هذا الارتفاع؟ حين تكون بعيدا عن السفح، وعن الجبل قد يسحبك الطريق إلى أعلى دون أن تدري إلا من أنين عربتك أو احتجاجها بالإبطاء دون سبب ظاهر. لسنا فقط فى أعلى الجبل، بل إن هذا الجبل، مثل كثير من جبال اليونان تنتهى حافته إلى البحر(المتوسط طبعا). على مرمى البصر نحت كوخا (أو اثنين أو ثلاثة) قرب الشاطئ وبضغ أشجار جميلة وسط الخضرة الممتدة، وعادنى حسدى لهم. قفزت إلى تخليق أحلام اقتناء كوخ منعزل وسط جبل أخضر، هاج على الحنين إلى "الركن الصغير وسط غرباء طيبين"، ناديت على النادل أسأله عن هذا الكوخ (أو الأكواخ) بالإشارة طبعا: هل هو موتيل أم بيت أسرة صياد. لم تنجح لغة الاشارات. لم يفهم شيئا. لكننى صممت أنه فهم. رجحت - بالعافية - أنه حتى لو كان كوخ أسرة صغيرة، فإنهم قد يسمحون بتأجير حجرة ليلة واحدة.

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 172

لاحظ: أن ليلة واحدة تكفى

(2) ".... كانت زوجتى تتابع حوار الصم هذا متوجسة شطحة جديدة لا تعرف إلى أين سوف تنتهى بنا، أنا أشير من جديد، وأغمض عيني وأميل برأسى لأفهمه أنى أريد أن أمضى ليلة فى هذا الكوخ، وهو يشير إلى أسفل حيث الكوخ، بما لا أفهم، والخطر يزداد اقترابا من زوجتى، فتتحقق من مخاوفها حين سألتها عن رأيها لو أننا قضينا ليلة أو بقية أيام الرحلة، فى هذه الحجرة المزعومة عند هذه الأسرة الصغيرة المفترضة، على هذا الشاطئ الجميل الواعد، فى حضان الجبل الخائى، قلت كل ذلك، أو تصوّرت أنى قلته، وأنا فى أشد حالات الحماس. الكوخ يجذبنى إليه بشكل أقرب إلى قوانين جاذبية مغناطيس الحديد منه إلى رغبة بشرية، طاطأت زوجتى رأسها، وتباطأت، وامتقع وجهها، فقرأت حجم مقاومتها 0 كان أكبر مما توقعت، ومع ذلك تماديت"

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 172 - 173

لاحظ: القوة الجاذبة

(3) ".... ثم إنى أحلم وأنا أكتب هذا الموضوع بالذات أن ينزل على فتح من البحر والغربة، أن أجدد منطلقا فى حضان الخلاء والسماء والجبل، أتصور أنه فى هذا الكوخ البعيد المتفرد، قد يحدث كل ذلك، سوف تتاح لى الفرصة التى أنتظرها من زمن..."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 173

لاحظ: وظيفة الكوخ مفرحا للإبداع،

حتى غرينوى (العطر) فى كوخه كان يبدع ذاته الإلهية.

(4) ".... كل ذلك قلته أو لم أقله وصل إلى زوجتى وهى صامتة ووجهها يزداد امتقاعا. خليط من التوجس والخوف والتردد والغضب والرفض، ولا أستبعد درجة من الاشفاق على، وربما محاولة فهم. يصلنى جفاج كل هذا وهو أنها لا توافق بمنتهى البساطة والوضوح. على الرغم من أنها لم تعلن رأيها بعد،

إلا أنى أعلنت عدولى عن كل ما قلته، عدلت راکضا نحو الناحية الأخرى: الاحتجاج الصامت، والانفصال المتجمد الحزين، حتى وددت لو بقيت جالسا فى مطعم محطة الوقود هذه حتى يحين موعد عودتنا إلى مصر، كنت مثل طفل يجرن بعد أن رفضت أمه الاستجابة لمطلبه الذى يعتبره الحياة ذاتها...."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 173

لاحظ: كيف أن الركن

(برغم ترادفه مع الرحم أو القبر كثيرا) يوصف هنا أنه الحياة ذاتها.

(5) "..... لا لا لا. المسألة تكررت بشكل بدأت أنشغل عليه، لم تعد بصيرتي في هذا الجذب الملح تكفى أن تمنعه أو تحمى من قفزاته العشوائية، كم مرة شددت هكذا إليه، في فالورسين في جبال الألب، في ضاحية باريس ونحن نزور فرانسواز صاحبة ابنتي منى، في أبيثيا وبونيار (شمال أسبانيا)، في المنوات مقابل أبو صير، في الفيوم، في دهب، في العين السخنة، في أعلى المقطم حيث أكتب الآن؟ في رأس الحكمة،

الانفعال الذى حلّ بي نتيجة موقف زوجتي الطبيعى من رغبتى هذه التى أرجح أنها تعلم شطحها الناشز هو الذى نبهني من جديد إلى جدية مسألتى هذه، ومع ذلك فكل هذه البصيرة، وهذا النظر وهذا التنبيه لا تمنعني من الاستجابة للحنين إلى حضنه."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 173 - 174

لاحظ: أن الكوخ منا "حُضُّ حان".

(6) "..... أهينا أكل المسقعة والزيتون الأسود في صمت تعرف زوجتي معناه ومضاعفاته، وانطلقنا إلى الشمال، رحلت أتابع لافتات تقول سالونيكى وأخرى كاتيرينا والثالثة "باراليا" من أعلى إلى أسفل على التوالي. (الأسفل هو الأقرب). الصمت يزداد ثقلا وثرثرة معا. صورة الكوخ تراودني وكأنها "الخل". لم يعد هناك أى شك في أنى أمارس - طول الوقت - "برنامج الذهاب والعودة" مع جذب متزايد نحو "الركن البعيد الصغير" "الواعد بنقلة ما"؟ ليس مهما إلى أين، لكننى لا أستطيع أن أوقف هذا الإلحاح الواعد أن هذا الكوخ، هذا الركن الصغير القصى سوف أخرج منه مختلفا حتى لو لم أكتب حرفا. بالذات لو لم أكتب حرفا. لو رصدت كم عدد من المرات حرّك هذا الجذب المعاول خيالي نحو شئ ما، أمر ما، كشف ما، شئ لم أعرفه أبدا، لوجدتها بلا حصر...."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 174

لاحظ: عدم ضرورة الوعي به أو اشتراط إنجاز بذاته.

* * *

مقتطفات أخرى

بداية باكرة للوعى بهذا الحنين اللوح

(1) لم يكن هناك امتحان بين سنة أولى وسنة ثانية طب، كنت في الحديقة التى اتخذها أبى بمثابة ركنه الصغير هو أيضا (هذا ما أتبينه الآن بوضوح). حجرتان لا تسعنا نحن السبعة بجال، ومع ذلك اضطررنا للانتقال من منزلنا الكبير وسط القرية (ثلاثة أدوار كل دور ثلاثة حجرات). لم يضطرنا أبى، بل أظن أن أمى، وربما أحدى الأكبر هما اللذان وجدا أن هذا هو الطبيعى. هاجر أبى من بيتنا الكبير إلى ثلاثة أدوار غير البدروم إلى هاتين الحجرتين العتيقتين في تلك الحديقة التى تقع مقابل المقابر مباشرة، - ذكرت ذلك قبلاً - وكان ثمة مقابر متفرقة بينها مفتوحة بسبب الإهمال أو فعل الذئب، وكنت في حاجة إلى عظام آدمية من التى ندرس عليها التشريح، وكنت أحصل عليها ببساطة، وبوفرة تكفيينى وتزيد حتى أهدى زملائي القاهريين بعض ما يفيض عنى. لم يكن يعتريني أى تردد أو خوف من تلك المقابر، أتذكر الآن كيف كنت أنسى وأنا أبحث عن عظمة ذراع أو فخذ، أنها مقابر أصلا، وأنها بقايا أعضاء بشرية فعلاً.

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 174

لاحظ: الوالد - الركن - القبر - السن!!

(2) ".... في يوم ما، في ذلك الصيف البعيد (1951)، سافر والدى إلى إخواني في القاهرة، وكانوا لم ينفوا امتحاناتهم بعد. أخطرتني أنه سيغيب يومين. وجدتنى وحيدا، وبدون أى سبب، تحت شجرة ماجو عتيقة جدا، وجدتنى أبكى بحرقة صادقة، ثم أفقت منتشيا وأنا أشعر أن وحدتى تتعمق بشكل رائع، فرحت أتغزل فيها وكأنى عثرت على كنز نمين، سجّلت

ذلك كتابة (على ما أذكر. على الرغم من أنني لم أجد له أثرا في أوراقى المبعثرة). حين ذهبت بعد ذلك إلى إحدى المقابر وحدي أستكمل بعض حاجتى من العظام، شعرت لأول مرة بهذا الجذب المريح الواعد، كانت لحظات عابرة لكنّها شديدة الوضوح، ثم نسيت الأمر تماما، ولم أتذكره إلا الآن وأنا أعد هذا العمل للنشر (2000/6/7) بعد اكتشافى فقد مسودة هذا الفصل.."

- الترحال الثانى: الفصل الرابع ص 175

لاحظ: كيف أن الجذب مريح واعد بعد انفعال عنيف عارم برغم أن خلفية الموقف هى تجميع عظام الموتى، أو ربما كان هذا سبب مثير في ذاته.

(3) "... حتى حجرتى عند مدام كومبالييزيه في الحى الثامن عشر قرب المونمارتر في باريس، اكتشفت الآن أنها كانت ركننا قصيا على طرف المونمارتر، بعيدا عن زملائى في الحى اللاتينى، وبعيدا عن كل ما هو قريب، كانت ركننا على طرف الدنيا، وليست حجرة في شقة. حين أبتعد، أقترب.."

- الترحال الثانى: الفصل الرابع ص 175

لاحظ: "كانت ركننا على طرف الدنيا، وليست حجرة في شقة، حين أبتعد أقترب".

(4) "... لا تكتمل صورة الركن عندى إلا إذا كان صغيرا (حجرة واحدة عادة) ملحق به، (الأفضل: في داخله) دورة مياه خاصة بها، مهما صغرت، ونافذتين على الأقل إحداها بحرية، بمجرد أن أجد نفسى فيه (ولو تحيلا) أهدأ وأترك نفسى لها، لكنى لا أستكين كما يتبادر إلى الذهن، بل سرعان ما يبدأ نزوعى إلى حركة جديدة يقظة متحفزة، لكنها ليست حركة ضجرة ولا حوح.."

- الترحال الثانى: الفصل الرابع ص 175

لاحظ: الانتباه إلى أن الركن - عادة - لا يكون ركننا إلا إن كان صغيرا.

(5) ".. أحيانا أتصوّر نهاية المطاف بعد التقاعد الاختيارى أو الاضطرارى فأركن إلى ركن خيالى وهات يا كتابة، أيضا ذهابا وعودة، وتقفز احتمالات ما لا أعرف بعد مشوارى الطويل الذى خدعت نفسى فيه بمواصلة معرفة المتاح.."

- الترحال الثانى: الفصل الرابع ص 175

لاحظ: ظهور برنامج الذهاب والعودة.

(6) "... بعد صمت ثقيل، قطعنا فيه مالا يقل عن ثلاثين كيلو مترا اكتشفت أن اسم البلد الأقرب لهذا الكوخ الملوّح هو "باراليا"، قلت لزوجتى فجأة، وكأني نسيت كل ما اهدت إليه بصيرتى مما سبق، قلت لها جادًا مكفهرًا في غضب لا يتناسب مع كل ما اعترفت به لنفسى عن نفسى: "إذا ميت، فأخري أحد الأولاد أنى كنت أريد أن أبيت هنا في هذا النزل على الشاطئ تحت أقدام هذا الجبل، ولو ليلة واحدة." لم ترد، ولم أشك أنها أخذت كلامى مأخذ الجد، ومع ذلك أكملت: أنا أعنى ما أقول، اعتبريها وصية، البلد اسمها باراليا، والمكان هو بجوار أقرب محطة لها في اتجاه لامبيا، ثم أضفت أيضا: أو ربما تمكنت يوما من العودة إليه وحدي. زاد صمتها غورا واحتجاجا، ورجحت - كما فرحت - أنها لم تشعر بالذنب، وأحسب أن هذا من أهم ما حفظ علينا حياتنا، حيث أتصور أن ما أمارسه معها من "تأثيم" كان جديرا أن يجرب بيوتا كثيرة، ونفوسا كثيرة، لكنها كانت دائما أطيّب، وأظن أقوى من حركاتى تلك.."

- الترحال الثانى: الفصل الرابع ص 175 - 176

لاحظ: أن الحنين يمتد بعد الموت وفي ما يشبه الوصية.

(7) "...الجو بيني وبين زوجتي مازال مكفهرًا قبيحًا، كأنى أُخرجت فعلا من رحم مزعوم قبل موعد الولادة الطبيعية، ولادة مبتسرة دون حضانة حانية ولو صناعية، أنا لم أدخل هذا الرحم المزعوم أصلا فكيف تكون الولادة دون حمل، حتى لو كانت مبتسرة؟.."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 176

لاحظ: اقتران الركن بالرحم بالولادة.

(8) "...مع انفراج الطريق انفرجت أزمة الولادة المتعسرة بالاستسلام إلى الأمر الواقع.

يبدو أنى ولدت خطأ، ولدت في غير أواني، إما قبله وإما بعده.

هذا الجذب للحوح، أحلام الرحم، نص (برنامج) "الذهاب والعودة.."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 176

لاحظ: أحلام الرحم

(9) "...لم انتبه - كالعادة - إلى محتويات السوق الأعظم (السوبر ماركت) الذى ظل مفتوحا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل في هذه البلدة الـ "أسراجاليا"، لكن مجرد التواجد وسط الناس، وشراء بعض الفاكهة وبعض التذكارات كان كافيا لعودتي كما كنت قبل حكاية "الركن القصي، والجذب للحوح".." الركن القصي، والجذب للحوح".."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 178

لاحظ: كيف أصبحت حكاية الركن القصي والجذب للحوح علامة فارقة تتأرخ بها مراحل الرحلة.

(10) "... ما هذا؟ لماذا؟ فسحة هي؟ رحلة؟ أم قهر ذاتي بلا مبرر؟!

كل ذلك لأننى لم أتمكن من الاستجابة لوهوم جذب الركن القابع في داخلي أسقطه على أى زاوية مهجورة، وأنا على يقين من أننى لو أمضيت فيه عاما أو سبعة أعوام (مثل باتيست جرينوى- العطر. قرأته لاحقا. سبتمبر 2000، باتريك زوسكن. خفت) سوف أغادره وأنا أبحث عنه من جديد؟.."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 179

لاحظ: الركن القابع في داخلي، برغم وصفه "بوهوم جذب الركن... الخ"

(11) "...أذكر أثناء عودتنا ذات سفرة من سوريا عبر عمان أننى فكّرت فجأة أن أنحرف إلى البتراء، وكنت قد زرتها قبل ذلك مرتين على الأقل، لكن مثل هذه الأماكن لها جذب خاص، أقل إباحا من نداء الركن القصي للحوح. في هذه المرة ضللت الطريق، حلّ ضباب كثيف كثيف، وكنا بين المغرب والعشاء، وكنت أحسب أن الضباب لا يتواجد إلا في الصباح، ثم بعد عدة خبرات خطيرة عرفت أن الضباب قد يهجم في أى وقت ولو في منتصف الليل، وكانت هذه هي المرة الأولى التى يهبط علىّ فيها الضباب بعد المغرب مباشرة وكنا سنضيع، ولم نضع.."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 187 - 188

لاحظ: الأماكن المتسعة الخالية لها جذبا المميز، لكنه مختلف عن نداء الركن الخاص.

(12) "...بعد أن ودعت الرجل على باب القنصلية غير مصدق كل تسهيلات، التفت إلى زوجتي التى تابعت الحوار بقلب واجف، فهى تعلم أننى قد أعملها، احتارت هذه السيدة معى، أمر على الركون إلى الركن القصي الصغير محتوي حتى أبدو أننى لن أخرج منه أبدا، أو أنطلق مستكشفا مغيرا طريقي وخططي وعودى مهما كانت المغامرة والصعوبات، ماذا تفعل هي في هذا البني آدم هكذا؟.."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 190

لاحظ: يحتوي حتى أبداً حتى أخرج منه أبداً .

(13) "... رجل الفندق ذو الساق الصناعية في حريات يفرح أننا من مصر، يتكلم العربية الشامية أحسن من فلسطيني في العريش، يعزم علينا جناح مكوّن من حجرتين وصالة بنفس ثمن الحجر الواحدة، كنوع من الكرم، فنقبل من باب الطمع، ولكن ما إن ندخل إليه حتى نجدنا كأننا في شقتنا في مصر، ما هذا؟ نحن نريد أن نساfer لا أن ننقل من شقة إلى شقة،؟ ونرفض عطية الرجل شاكرين ونفضل الحجر الصغيرة المطلة على الجبل، وتشاركني زوجتي الرفض، فأنظر إليها ممتناً، هل أصابتها عدوى الحنين إلى الركن الصغير؟.."

- الترحال الثاني: الفصل الرابع ص 194

لاحظ: "عدوى" الحنين إلى الركن

(14) "...ليكن كل ما قلته ليس له أساس من الصحة، لكنني سأجعله صحيحاً بما أفعل الآن وما أقرر. فقررتُ أن تمتد الإجازة لغير ما سبب إلا أن أكمل انتهاز هذه الفرصة، فأجعل وجودي المنفرد هكذا لهذه الفترة هو ركني إياه ، لكنه ركن وسط الناس، ركن سرى، وسوف يريد هو ما أريد..."

الخميس 1993/6/24

- الترحال الثاني: الفصل السادس ص 282

لاحظ: تخليق الركن السرى إرادياً وسط الناس

(15) "... في هذا الجو هنا في مونترية، بدت لي الطبيعة مساحة مجسدة، هذا الفجر الممتد أتجول فيه - جالسا - هو لا يمرّ بي، بل أنا الذى أتجول فيه. أتجول في الفجر وأتبين الخيط الأبيض من الأسود منه. هذا التشرنق الحالى الذى لم أعده من قبل في رحلاتي السريعة الإيقاع كان فجراً خالصاً. الركن الذى كنت أسعى إليه دائماً أبداً ثبت أنه موجود بداخلي طول الوقت، أستطيع أن أنصبه وسط أى زحام، أدخله في جوف الليل أوفى عز الظهر، حين يطلع على الفجر ولا أريد أن أغادره أستعى الليل إلى داخله، حتى طلوع الشمس لا يستطع أن يقتحمه. ياه !! فلماذا كان كل ذلك الإخاح من قبل. هل الخل هو أن يعثر كل منا على ركنه بداخله ليطمئن أنه يمكن أن "يكون" وسط كل الناس دون أن يقتحمه أحد دون إذن. أكتشف أيضاً أن الفجر أحلى من الشروق..."

كانت شرفتي على شاطئ هذه البحيرة في حضان الجبل فجراً خالصاً.."

الترحال الثاني: الفصل السادس ص 286 - 287

لاحظ: لاحظ كيف أن الحجر الصغيرة - اختياراً - جمعت بين التشرنق والجبل والبحر فكانت "فجراً خالصاً".

(16) "...طلبت من صديقى الذى كنت أزمع زيارته في رين أن يهجز لي حجرة في الريف الفرنسى الشمالى عند أسرة فلاحه أفضى فيها أغلب إقامتى في فرنسا هذه المرة. أنا أحتاج إلى نقلة شديدة إلى أقصى الجانب الآخر، ياه !! أين اكتشفت أنني تخلصت من هذا الجذب الملح إلى الركن القصي، وأنه في داخلي وأن هذا الجذب إلى الركن في الخارج لم يغنى شيئاً، وأنه وأنه...؟؟ يبدو أنني مازلت غير مطمئن إلى مصالحة باريس. الخصام السابق أدى إلى أن يختزل باريس إلى الطقوس المعادة، والوجوه المتلفطة إلى غير وجهة، والخبز الذى أصبح يصنع في مصر فلم أعد أشواق إليه. ليكن ريف فرنسا في الشمال هو رحلتى إلى داخلي أكمل بها..."

الترحال الثاني: الفصل السادس ص 288

لاحظ: ثم اقرأ بدقة.. "كيف أن الرحلة الأهم هي إلى الداخل...!"

وبعد

هكذا توقفت عن مزيد من المقتطفات وإن آسف على التكرار اللوح أيضاً لكنني أردت أن أبين من كل ذلك ما يلي:

أولاً: حجم خبرتى الشخصية فى جزء واحد من عمل واحد.

ثانياً: أنى كتبت كل ذلك دون أية رؤية للتظير فى تشريح النفس وتركيب البشر.

ثالثاً: أنى كنت أنتقل من ركنى الداخلى إلى ركنى الخارجى باستمرار حتى أنى أحياناً كنت أعجز عن التمييز بينهما.

رابعاً: أنى أرجح الجذب إلى الركن الخارجى ليس مجرد إسقاط للحنين إلى الركن الداخلى.

خامساً: أن الركن ليس "مكاناً" بقدر ما هو "حيز محدود من الأمان" سواء كان مكاناً أو زماناً.

سادساً: أن الركن يمكن أن يتواجد وسط حشد من الناس.

سابعاً: أن رحلات الداخلى هى التى تعطى معنى وطعماً واحتمال إبداع من رحلات الخارج.

ثامناً: أنى وضعت احتمالاً ضعيفاً ينبهنى إلى ضرورة أن أفحص ما ذهبت إليه من تظير خشية أن تكون المسألة برمتها أمراً شخصياً توطرت فى تعميمه على سائر البشر.

...

وإلى الأسبوع القادم.

نرجع للمتأمل لئلا يوجه السلبى لسوء توجه هذا النزوع.